مقدمة المترجم

نُشر هذا الكتاب باللغة الإنجليزية فى عام 1963 فى واشنطن، لكن للأسف لم يأخذ حظه من الاهتمام حيث أن الدوائر الغربية لا تحتفى عادة بالكتب الموضوعية التى تعطى الحضارة الإسلامية ما تستحقه من ثناءٍ أو حتى التى تتحدث بصورة موضوعية عن الإسلام والمسلمين، وعلى الجانب الآخر تهتم هذه الدوائر بالكتب التى تهاجم الإسلام والتى تحط من شأن الحضارة الإسلامية (مثل كتاب صراع الحضارات وغيره) وتتهكم عليها.

وقد وقع هذا الكتاب تحت يدينا عن طريق المصادفة وقد وجدنا أنه يستحق الترجمة نظرًا للموضوعية التى يتصف بها الكاتب فى سرده للأحداث (وهذا أمر ليس معهودًا بالنسبة لغالبية الكتاب الغربيين) ولما يقدمه من معلومات وافية عن الحضارة الإسلامية ودورها فى تقدم حضارة العالم، والمعلومات التى يقدمها هذا

obeikan.com

الكتاب لا تخفى ليس على غالبية الغربيين فقط بل على كثير من المسلمين أنفسهم، فهذا الكتاب يُذكر القارئ المسلم بالتاريخ الناصع للحضارة الإسلامية وكيف أن العالم الغربى المسيحي قد نهل من معين الحضارة الإسلامية ونهض على أكتافها.

تعرّض تاريخ الحضارة الاسلامية للعديد من الدراسات والتأملات التاريخية والفلسفية للبحث في كيفية تذبذب الحضارة الاسلامية صعودًا وهبوطًا بين الممالك والدُّويلات وانتهاء بأُفُول شمس سطوةٍ استمرت لعقود وقرون منارةً للهدى والاقتباس والتنوير.

وفي سياقٍ مُشابه يقدم كتاب «المسلمون في تاريخ الحضارة» للمؤلف ستانوود كوب قراءة متأنّية للحقائق التاريخيّة خارج الصراعات القومية والأيدلوجية وظاهر سطوة القهر والعنف؛ حيث يعتبر الكتاب قيّما لإظهاره أوجهًا تم تغييبها تاريخيًا عن قوة وتمكن الحضارة الاسلامية في الالتقاء الروحي للدين الاسلامي مع فضائل الانسانية من علوم وحكمة وتسامح.

فازدهار الحضارة الاسلامية تمثل في حماية واستثمار واحتضان المسلمين لما وجدوه من إرْث حضارات سواء كانت عربية أو فارسية أو يونانية؛ هذا بالإضافة الى استقطاب المسلمون للعلماء والمفكرين والأدباء بغض النظر عن تضاد مرجعيتهم الدينية والحضارية. الأمر الذي تتم تتويجه بحركات الترجمة لموسوعات ومُتُون العلوم والفنون والفلسفة العالمية، وإنشاء المراكز والمبادرات العلمية والثقافية

والأدبية التي امتدت في كل أرجاء الرقعة الاسلامية.

كما تتجلى سماحة وعدالة ورُقي الحضارة الاسلامية في إشراك كافة طبقات المجتمع، بما ساهم في تضمين كافة مفردات التركيبة الاجتماعية وبما ساهم في صناعة حضارة عالمية، الأمر الذي نراه اليوم في النسيج الثقافي والحضاري للقوة العظمى من دعمٍ وتشجيعٍ وتبني لحرية العقل وللبحث العلميّ والثقافة والفنون بما يعزز المكانة الاقتصادية والسياسية لهذه الدول.

لذلك فان من أحد أهم أسباب أُفُول الحضارة الاسلامية ليس كما يعزوه الكثيرون الى الهزيمة العسكرية؛ بل يكمن في تقويض العلوم والثقافة، والأهم من ذلك في استبداد العنصرية ضد المرجعيات والتعددية الحضارية التي ما انفكت تُثري الحضارة الاسلامية، وفي عصرنا الحاضر حيث تستحوز التشنّجات العرقية وسطوة القوة والقهر على تطلعات المجتمعات الإسلامية في النهوض والخروج بمنظومات حضارية تفي بأسس وحقوق النفس الإنسانية من عدالة ورقي وسيادة يأتي كتاب «المسلمون في تاريخ الحضارة كمراجعة جديرة بالاطلاع لمعطيات بناء الحضارة الاسلامية التي لطالما سَعَيْنا لإعادة بريقِها.

هشام خداوردي

obeikan.com

مقدمة

يرجع اهتمامى بالإسلام إلى الفترة التى كنت أعيش فيها فى مدينة إسطنبول (تركيا) حيث قمت بالتدريس بجامعة «روبرت»، لم يكد يمض الكثير من الوقت حتى شعرت جراء انخراطي مع الطبقة المتعلمة من الأتراك أنني أرتع في أحضان موطني وفي حقيقة الأمر كان أحد أقرب الأصدقاء إلى قلبى في تلك الآونة ومنذ ذلك الحين هو تيكمُ المدرس التركى المسلم، الليبرالى صغير السن، والذي أصبح فيما بعد عميدًا للكلية.

وعندما كنت أتنقل بين ظهراني الأتراك، فإنه لطالما انتباني هذا الشعور بالدهشة جراء هذه السكينة وهذا الهدوء الذي كان يكتنف عامة الشعب طوال الوقت، فعلى سبيل المثال، فإنه قد أتيحت لي الفرصة من خلال مطالعة ما يحدث على امتداد ميناء مضيق البوسفور لكي أتعرف على كُنه هذه الطبيعة التي جعلت التجار المسلمين يرتقون ويتميزون على غيرهم من المنافسين إذ أنه في الوقت الذي كان فيه التجار غير المسلمين في حالة ترقبٍ دائمٍ للزبائن حتى أنهم كانوا يصيحون

obeikan.com

بصوت عالٍ ويُلوحون بأيديهم عند رؤية زبون محتمل لدرجة أنهم كانوا في معظم الأحيان يقفزون من قواربهم بُغية تسويق بضاعتهم، كان التجار المسلمون على الجانب الآخر يجلسون يعلُوهم الوقار ينتظرون في طمأنينة أي زبون يرسله الله إليهم وفي الحقيقة كان هذا السلوك من جانب المسلمين أكثر إقناعًا لنا من هذا التكالب الذي أظهره البحارة اليونانيون والأرمانيون والذين كنا نُنحيهم جانبًا كى نصل إلى قوراب البحارة الأتراك.

وكان هذا الوقار الذي بَدَا من جانب المسلمين أكثر وضوحًا في خضم الحياة التجارية في أسواق إسطنبول منه في غيره حيث كان يجلس الكثيرون من تجار السجاد (من غير المسلمين) أمام محلاتهم كي يروجوا بضاعتهم للمارة، أما نظرائهم من الأتراك فكانوا يجلسون في هدوء على سدة في آخر محلاتهم ولم يكونوا ليتحركوا من أماكنهم ما لم يجد أحد الزبائن سجادة تعجبه فيسأل عن ثمنها، وكان من عادة الأتراك أن يقوموا بتسعير سلعهم بزيادة تقترب من الخمسة والعشرين في المائة فوق السعر الأصلي، وتجدر الإشارة إلى أن هذه الزيادة على السعر الأصلي كانت تهبط لتصل إلى السعر الأصلي للسلعة وذلك بسبب نظام الفصال الذي كان عاملاً رئيسًا وجوهريًّا في الحياة التجارية في الشرق، وعلى الجانب الأخر، كان من عادة تجار السجاد الآخرين أن يستهلوا أسعارهم بزيادة تربو على السعر الطبيعي بما يعادل ثلاث مرات أو أربع.

وقد كان السياح الأمريكان على علمٍ بأنه يجب على الشخص أن يقوم دائمًا بعملية الفصال، لذا فقد كانت الفرحة تغمرهم عندما يقومون بتخفيض الثمن لنصف ما هو مطلوب حتى أنهم كانوا يفتخرون بمهارتهم في ذلك ولا يعلمون أنهم في نهاية الأمر قد قاموا بدفع ضعف القيمة الأصلية.

لم يكن الأتراك يتصفون بالأمانة كتجارٍ فحسب: بل وكعُمال أيضا، وكان من درجة أمانتهم أنه قد شاع بين بعثات التبشير الأمريكية ما مفاده أنه إذا فقد أحدهم شيئًا ما عن طريق المصادفة في إحدى القرى التركية، فإن هذا الشيئ سوف يعود إليه بنسبة تسعين بالمائة؛ وهو الأمر الذي كان نادر الحدوث في القرى الشرقية الأخرى، ويبدو من خلال التاريخ الإسلامي المبكر أن الإسلام قد استأصل شأفة السرقة بين العامة حيث وقف الحكام منها موقف الحزم؛ وهنا أود أن أشير إلى أنه قد انتابني شعور بالدهشة إثر رؤيتي لأحد متاجر الخردوات على أحد جانبي الطريق مفتوحًا ومتروكًا كليةً دون حراسة في إحدى المدن التركية في الوقت الذي فيه كان صاحبه يؤدي صلاة الجمعة في المسجد.

لقد تجلَّت تقوى الله والإيمان به في قلوب الأتراك في هذه السكينة التي كانت تغمر خضم حياة العالم المفعمة بالنشاط، كما تجلت أيضًا في هذا الإجلال والتوقير الذي أظهره الأتراك في صلاتهم اليومية وفي صلاة الجمعة. وهنا تجدر الإشارة إلى أنه قبل ثورة 1908 والتي قام بها الشباب الأتراك لم يكن مسموحًا البَتَّة لغير

المسلمين أن يدخلوا المسجد أثناء تأدية المسليمن لصلواتهم؛ وهو الأمر الذي ظل جراء الظروف الآنية لغزًا غامضًا بالنسبة للمؤرخين الغربيين. وعلى النقيض من ذلك، قرر الشباب الأتراك الذين يعتريهم الفخر أن تتحرر دولتهم من الأحقاد القومية المحلية أن يفتحوا المساجد في صلاة الجمعة لكي يؤمها من يشاء وذلك على نحوٍ مماثلٍ للتقليد الذي تتبناه الكنيسة.

وقد أُتيحت لي فرصة لحضور الصلاة بمسجد القديسة صوفيا وملاحظة نوع العبادة التى يقوم بها المسلمون والتي تمثلت جُلها في السجود حيث قام المصلون بالركوع مراتٍ عدة، تُبعت بوضع راحات أيديهم على الأرض ثم النهوض ورفع راحات اليد إلى أعلى، وقد استمعت إلى جانب هذا كله إلى موعظة قصيرة (خطبة الجمعة التي يلقيها الإمام على المصلين يوم الجمعة قبل الصلاة).»

والحق يقال أنه قد انتابتني حالة شديدة من الدهشة جراء هذا الإجلال والتوقير الذي أظهره المتعبدون المسلمون؛ هذا الإجلال الذي فاق ما رأيته في وقتٍ لاحقٍ في جولتي الأسبوعية التي أقوم بها لجبل «أثوس» والذي يعد معقلَ الرهبانية للكنيسة الكاثوليكية الشرقية، وحقًّا أنني لم أر من ذي قبل مثل هذا التفاني في العبادة في أيٍّ من الكنائس المسيحية.

وفي وقتٍ لاحقٍ هذا العام، حظيت وبعض الأجانب بمشاهدة الاحتفال السنوي بليلة القدر من إحدى الشرفات العالية؛ هذه الليلة التى يعتقد المسلمون أن القرآن قد

نزل فيها من السماء إلى الأرض؛ لقد كانت أرض مسجد القديسة «صوفيا» مكتظة بزهاء الخمسة آلاف متعبد والذين كانوا يسجدون على الأرض وينهضون في تناغمٍ تام، وكانت هدّة ركبهم ثم كفوفهم ونهوضهم السريع مرة أخرى أشبه في تزامنها بدَوَرَان سربٍ ضخمٍ من الطيور، لقد كان مشهدًا عظيمًا حقًّا.

وجنبًا إلى جنبٍ مع هذا الإجلال والتوقير الذي أظهره المسلمون، كانت روح الديموقراطية والأخوة المطلقة تعلو سائر العبادات التي كان المسلمون يُؤَدونها؛ فرأيت الحمَّالين يلبسون ملابس نظيفة ويصلون جنبًا إلى جنبٍ مع الباشوات ذوي الثراء الذين يرتدون الملابس المصنوعة من الفرو، كما رأيت هؤلاء الزنوج ذوي البنية القوية يتعبدون جنبًا إلى جنبٍ مع أكثر الأتراك أناقةً في المدينة، لقد كان الإسلام منذ الوهلة الأولى وإلى الآن مصدر إلهامٍ لروح الأخوة الحقيقية.

ولكن ما علاقة هذا كله بالإسهامات الإسلامية في الحضارة؟ إن الغرض جراء هذا الكتاب هو إيجاد شعورٍ عامٍ وتبني منهج شخصي لدراسة هذا الموضوع الذي يتسم بالتجرد؛ ذلك أن تاريخ الإسلام لا يمكن أن يقيمه إلا هؤلاء الذين يدركون إلى حدٍ ما روح الإسلام الداخلية وأثر تلك الروح في إضفاء درجةٍ من الكرامة والسكينة على الحياة، حتى تلك التي يحياها الإنسان البسيط.

وأستطيع أن أُبرهن على ذلك بشكلٍ شخصي؛ حيث أنني عُدت من تركيا رجلاً مختلفًا نوعًا ما، حيث أصبحت أقل حدةٍ في مواجهة الإحباطات وأقل عصبيةٍ وأقل

توترٍ من ذي قبل؛ وهو الأمر الذي يثبت أن روح السكينة في الشرق قد تغلغلت في أعماقي.

ومن ثم، فإنني أطلب من القارئ (حال ابتدائه بقرائة المقدمة كما يفعل القليل) أن يتناول هذا التاريخ الخاص بالحضارة العربية الإسلامية من منظورٍ عاطفيٍ، إذ أنه من اللازم علينا حتى نفهم شعبًا ما أن نحاول أن نشعر بنفس الطريقة التي كانوا يشعرون بها، كما أنه من اللازم علينا أيضًا إذا ما أردنا أن نفهم كُنه أي حقبةٍ زمنيةٍ أن نتخيل أنفسنا وهي تحيا فيها.

ستانوود كوب

obeikan.com